تونس
الحياة الثقافية
العدد رقم 41
1 يوليو 1986

في البنيـة القصصية ودلالاتها

تطبيق نظريات علم القص على روايـة جزائريـة
« الزلزال » للطاهر وطار

محمد القاضي

○ تقديـم

يندرج علم القص (Narratologie) ضمن المحاولات الحديثة التي يروم أصحابها علمنة المناهج التي تتناول الأدب بالدراسة . وعلم القص فرع من فروع علم النص (Textologie) الذي تمخض عنه علم العلامات (Sémiologie)[1] ويعكف هذا العلم على دراسة الانساق والسنن التي يقصد بها التواصل . ولعله من الشائع الآن ان فردينالد دي سوسير (1857 ـ 1913) هو الذي مهد لظهور علم العلامات اذ أشار في كتابه « دروس في اللسانيات العامة » الى امكانية وجوده .

غير اننا ان تجاوزنا هذا المعطى التاريخي الذي يجعل علم العلامات سليل اللسانيات وجدنا ان هذين العلمين متشابهان في « أغلب المفاهيم الأساسية والمناهج تشترك فيها المقاربتان او قل انها قد نقلت من اللسانيات الى علم العلامات »[2]

وقد كان الشأن ان اللسانيات تهتم بالوحدات الأدنى من الجملة فاذا انتقلنا الى الخطاب كانت مقولاتها غير ذات شأن . وهذا الرأي كان « رولان بارت » هو الذي عبر عنه .[3] الا ان تطور اللسانيات وظهور النحو التوليدي الذي لم يول بنية السطح اهمية تذكر بل آثر الاعتناء بالبنية العميقة قد طرح قضية مهمة تتمثل في حدود الجملة وفي علاقتها بالخطاب . ومن ثمة نظر الى الجملة على انها يمكن ان تكون صورة مصغرة من الخطاب . فكما ان الجملة ليست جماع مكوناتها اللفظية كذلك كان معنى الخطاب غير جماع الجمل التي يتألف منها[4] . ومن ثمة ثارت المجادلات في شأن علاقة اللسانيات بلسانيات الخطاب .

وقد واجه علماء القص هذه القضايا عند دراستهم للنصوص القصصية . فرأى « سيغفريد شميدت » (Siegfried Schmidt) انه ثمة « ثلاثة مجالات للبحث في تحليل القصص تحليلا علاميا :

أ) تحليل فنيات القصة (بارت) .

ب) تحليل القوانين او الضوابط التي تتحكم في « الكون » السردي (بريموند) أو [تحليل] منطق الأعمال او منطق العمل (تودوروف) [أو تحليل] منطق العلاقات الممكنة بين الشخصيات (أ . سوريو ـ قريماس)

ج) تحليل العلاقات بين الوحدات السردية و [كيفية] ظهورها في الخطاب (العلاقات بين الحكاية والقصة والخطاب) .[5]

وداخل المجال الأخير نجد « ميك بال » (Mieke Bal) التي عرفت علم القص بأنه « علم السردية » (Narrativité)[6] او انه « العلم الذي يروم ان يصوغ نظرية النصوص السردية في سرديتها »[7] . وقد لاحظت « ميك بال » انه يمكن ان نميز في النص القصصي بين مستويات ثلاثة = النص السردي (texte narratif) والقصة

(récit) والحكاية (histoire) وان « سردية نص ما هي الطريقة التي بها يتيح النص فك رموزه باعتباره سرديا . وعلى هذا النحو يمكننا القول ان السردية محددة بالعلاقات الرابطة بين النص السردي والقصة والحكاية »[8]

أما من حيث المنهج فقد كان اثر « بروب » (Propp) كبيرا في الدراسات التي عني فيها اصحابها بدراسة السردية . وظهرت نزعة الى تطبيق نماذجه تطبيقا آليا . الا أن بعض الباحثين ومنهم « دوميزيل » (Dumézil) و « ليفي ستروس » (Lévi - Strauss) تنبهوا الى ان انموذج « بروب » - كما يتجلى في كتابه « بنية الخرافة » Morpho-logie du conte [9] - لا يعنى الا بالبنية السطحية للعمل السردي أما البنية العميقة التي تنظم الخطاب وتظل خفية فقد اهملت الى حد بعيد .

وقد أفضى اتساع مدى السيميائية (Sémiotique) وتطبيقها على النصوص السردية الى « الاستعاضة عن فكرة « الوظيفة » بـ « الملفوظ السردي » والاعتراف بوجود وحدات سردية تتصل أحيانا بجدول الاختيار وأحيانا أخرى بجدول التوزيع وتكونها العلاقات التي تقوم بين الملفوظات السردية فيما بينها . و [أدى تطور السيميائية كذلك الى] تفسير القصة باعتبارها بنية سردية اي شبكة من العلاقات واسعة تكون أساس الخطاب السطحي الذي لا يظهرها الا اظهارا جزئيا »[10] .

وقد نتج عن ذلك ان تحليل السردية قد اعتمد اشكالا متعددة منها ما ينطلق من البنية السطحية ومنها ما ينطلق من البنية العميقة . ومنها ما يعتبر ان السردية لا تدرس الا من خلال السنن المتعددة التي تخترق النص السردي اختراقا وتتداخل فيه تداخلا . ويعود هذا الاختلاف في قسمه الأكبر الى قضية الغايات التي يسعى اليها المنظرون والمحللون . فمنهم (« بريموند » و « تودوروف ») من يروم انشاء نحو سردي لا صلة له بعلم الدلالة (Sémantique) وفي هذا متابعة لآراء « بروب » ، ومنهم (« قريماس » ومن لف لفه) من حاول المزج بين علم الدلالة وعلم التركيب لاقامة نحو سردي .

ان علم القص يبدو على هذا الشكل في مرحلة التأسيس وهو ما يفسر كثرة الاختلافات بين من تصدى له بالبحث = موضوعا ومنهجا وغاية . ولا شك ان ذلك سيكون له أثر وأي اثر على محاولتنا هذه . فنحن ننوي تطبيق بعض نظريات علم القص على رواية « الزلزال »[11] للطاهر وطار وهي نظريات لم يشتد عودها وما زال الكثير منها محل جدل . وقد ارتأينا ان نعتمد هذه النظريات في مرحلتين :

- بنية السطح وفيها نتحدث عن المركبة السردية التي نفصل فيها القول عن البرنامج السردي . ومنها ننتقل الى المركبة الخطابية التي استعضنا فيها عن المعانم (Sèmes) والمجالات التصويرية (parcours figuratifs) . . . بالبحث في الأدوار الغرضية (rôles thématiques) وفي أعوان السرد (instances de narration) وذلك لتعذر القيام بتحليل مفصل لدقائق الرواية .

- البنية العميقة ونبدؤها بابراز محاور التواتر (isotopies) التي تتشكل حولها وحدات النص المعنوية وتجعل قراءاته ممكنة . فاذا تم لنا ذلك حاولنا ضبط بعض مستويات التأويل التي نستطيع بواسطتها ان ننزل النص منزلته من الظروف التي ولدته .

I - مستوى السطح

1) المركبة السردية

لن نهتم بكل ما ورد في الرواية ولا ينبغي لنا ذلك بل همنا الوصول الى البنية الأصلية التي يقوم عليها البناء الأساسي . وسوف نعنى باستخراج العناصر التي تبرز في تتابعها تغيرا في المعنى سواء أكان ذلك في مستوى الحالة او في مستوى الحدث . وهذا التتابع هو الذي نطلق عليه تسمية السردية[12] التي من شأنها توليد المعنى .

ويمكن ان نميز في النص السردي بين ضربين من الملفوظات :
ملفوظات الحالة = وتتعلق بامتلاك ذات موضوعا ما أو عدم امتلاكها اياه .
ملفوظات التحول = وهي تتصل بطبيعة العلاقة الرابطة بين الذات والموضوع في تطورها في النص السردي أو تحديدا في البرنامج السردي ، وهو يمثل في المركبة السردية وحدة مركبة مفيدة ، إذ هو عبارة عن مقطع منظم مكون من تعاقب للحالات والتحولات ينشأ عنه تحول رئيسي من الاتصال (ذات ^ موضوع) الى الانفصال (ذات V موضوع) أو العكس .

وإذا رمنا تحديد البرنامج السردي في رواية « الزلزال » فانه من الضروري ان نبحث فيما ينتظم ملفوظات الحالة وملفوظات التحول المتسلسلة من قواعد ترسم حدود تعاقبها وطرقه والمنطق الداخلي الذي يحكمه . ويمكن ان نبين ذلك اعتمادا على أربعة مفاهيم لا تصور مراحل ثابتة وانما تتصل بالتحول من زوايا مختلفة =

1 ـ **الانجاز** (performance) : ونعني به العملية التي يتم بها التحول من حالة اتصال (ذات ^ موضوع) الى حالة انفصال (ذات V موضوع) أو عكس ذلك . وهذه العملية تفترض وجود ذات فاعلة (sujet opérateur) تنجز التحول .

2 ـ **الكفاءة** (compétence) ونقصد بها ما تحتاج اليه الذات الفاعلة من قدرات لانجاز التحول . وهذه القدرات تؤول الى عناصر أربعة = وجوب الفعل وارادة الفعل واستطاعة الفعل ومعرفة الفعل .

3 ـ **الايعاز** (manipulation) وهي جملة العمليات السردية التي تسلط على الذات الفاعلة (التي تقوم بالانجاز) وتدفعها الى انجاز التحول موضوع البرنامج السردي .

4 ـ **الحكم** (Sanction) وهو يحل عندما يتم التحول . ويتمثل في تقويم المآل الذي آل اليه البرنامج السردي .
واعتمادا على هذه المفاهيم الأربعة سنحاول تحليل المركبة السردية لرواية « الزلزال » .

ـ 1 ـ الإنجاز

ان الرواية يمكن ان تردّ الى برنامج سردي أساسي يتمثل في الانفصال ولنا ان نسميه « الفقدان » . وهو فقدان مزدوج لموضوعين أحدهما معنوي وهو الموضوع الضمني والآخر مادي وهو صريح .

	الحالة الأولى	الحالة الأخيرة
الموضوع الضمني	اتصال = الشيخ ^ العلم	انفصال = الشيخ V العلم
الموضوع الصريح	اتصال = الشيخ ^ الأرض	انفصال = الشيخ V الأرض

وهذا البرنامج يفترض برنامجا ضديدا هو الاتصال ويمكن ان نسميه « التأميم » وذاته الحكومة او النظام او القانون الى غير ذلك .

ويظهر من هذا ان ذات الحالة ـ اي الذات التي يتعلق بها الاتصال او الانفصال ـ هي الشيخ عبد المجيد بو الأرواح . الا أن الذات الفاعلة التي أحدثت التحول مختلفة عنه ويمكن ان يتضح امرها من خلال البرامج السردية الثانوية التي وقعت بين نقطتي البداية والنهاية .

وقد سطر الشيخ مراحل برنامجه الأساسي (عدم فقدان الأرض) . الا أن هذه المراحل لم تطبق كلها فجاز لنا بذلك الحديث عن مستويين :

1) برنامج محتمل { البحث عن أقارب / اقناعهم بالبرنامج / تنفيذ البرنامج } نتيجة محتملة (الابقاء على ملكية الأرض)

2) برنامج فعلي { البحث عن أقارب } نتيجة فعلية (الفشل)

وعلينا ان ننبه الى أن ترتيب البرامج الجزئية في البرنامج الأساسي المحتمل يخضع لضرورة منطقية فلا يمكن الانتقال الى البرنامج الثاني الا اذا انجز البرنامج الأول ولا ننتقل الى البرنامج الثالث الا اذا تحقق البرنامج الثاني . ومن ثمة بدأت الذات (الشيخ) بالبحث وهو برنامج سردي جزئي هدفه الانتقال من الانفصال الى الاتصال . وقد رسم الشيخ مراحله منذ الفصل الثاني فكانت خمسا :

البحث عن:
- الموضوع (1) = عمار
- الموضوع (2) = الطاهر
- الموضوع (3) = عيسى
- الموضوع (4) = عبد القادر
- الموضوع (5) = الرزقي

وجدير بالذكر ان هؤلاء الأشخاص الخمسة لا يمكن اعتبارهم في اطار التحليل السيميائي للمركبة السردية كائنات حية بل انه يعسر علينا ادراجهم ضمن شخصيات الرواية لأن قيمتهم السردية انما يحددها موقعهم من البرنامج السردي ودورهم فيه لا يتعدى كونهم مواضيع . اذ هم أدوات تريد الذات الرئيسية (الشيخ) الحصول عليها لتحقيق الاتصال (الحفاظ على الأرض) وافشال البرنامج المضاد الذي يسعى لتحقيق الانفصال (التاميم) .

وقد قسم البحث الى خمسة برامج دنيا كانت نتيجة كل منها مختلفة عن الأخرى نوعا ، مشابهة لها وظيفة :

الحالة الأولى = انفصال

الذات (الشيخ) { الموضوع (1) / الموضوع (2) / الموضوع (3) / الموضوع (4) / الموضوع (5) } فراق

الحالة الأخيرة = انفصال

الذات (الشيخ) { (1) استشهد / (2) صار ضابطا / (3) صار نقابيا / (4) صار استاذا / (5) لم يعثر عليه }

ويمثل هذا البرنامج مفارقة لأن حالة المواضيع قد تغيرت ولكن علاقتها بالذات ظلت ثابتة وتتمثل في الانفصال . ويمكن ان يفسر ذلك بخروجها عن حدود البرنامج الذي محوره الشيخ الى برامج اخرى ضديدة في علاقة تقابل مع الشيخ (الحكومة ، الثورة ، العمال . . .) على ان التماثل الظاهري بين الحالة الأولى والحالة الأخيرة (الانفصال) ينطوي في الواقع على اختلاف ، لأن الذات الفاعلة في كلتيهما مختلفة . فهي في الحالة الأولى الشيخ اذ هو الذي أراد ذلك وفي الثانية فَرَضت عليه ذلك قوى خارجة عنه . ومن هنا نعتبر الحالة الأخيرة فشلا للبرنامج الجزئي (البحث) ، وهو أمر سيؤثر سلبا على البرنامجين الجزئيين الآخرين (الاقناع ـ التنفيذ) وسيحول دون انجاز البرنامج الأساسي (الحفاظ على الأرض) .

إن هذا التحليل الأول يكشف لنا عن برنامجين متصارعين :

	برنامج أساسي	برنامج ضديد
الموضوع	الأرض	الأرض
الغاية	عدم فقدان الأرض	التاميم
ذات الحالة	الشيخ عبد المجيد بو الأرواح	الحكومة ـ الثورة ـ العمال
الذات الفاعلة	الشيخ عبد المجيد بو الأرواح	الشعب

ـ 2 ـ الكفاءة

ان الذات الفاعلة في البرنامج الأساسي (الشيخ بو الأرواح) تتمتع بقدرات تؤهلها لتحقيق غايتها . ويمكن ان تلخص هذه الكفاءات في نقطتين :



أما العلم فقد حصل عليه في جامع الزيتونة حيث قضى سبع سنوات[13] وهو يعرّف نفسه بأنه « عالم في الدين والنحو والصرف »[14] . وأما المال فمتأتّ من شغل الشيخ منصب مدير ثانوية في العاصمة . زد على ذلك انه يملك أراضي شاسعة « ما يزيد عن ثلاثة آلاف هكتار »[15] . وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام : قسم ورثه وقسم اشتراه وقسم تنازل له عنه بعض الورثة .

على أن هاتين القوتين اللتين يملكهما الشيخ لا تقومان بدور واحد . فلئن ظل العلم اداة تقويم في يد الشيخ فان المال قد تحول في الرواية من كفاءة الى موضوع قيمة تتنازع عليه ذاتان = ذاتُ البرنامج الأساسي (الشيخ) وذات البرنامج الضديد (الحكومة) . ولذلك فان الشيخ يحاول في القسم الأكبر من الرواية اكتساب الكفاءة التي تمكنه من دحض

البرنامج الضديد ونقضه وذلك بالعثور على اقاربه . وهنا يغدو « العثور » كفاءة قابلة للتطوير في صلب البرنامج الجزئي الثاني « الاقناع » . وبهذا المعنى يصبح الأقارب مواضيع صيغية[16] .

ومن هذا المنظار فان محور الرواية هو الكفاءة التي ستمكن الشيخ ان هو تحصل عليها (وجد اقاربه) من تحقيق الانجاز الذي يعتبر عماد البرنامج السردي الأساسي . ولكنه ان لم يحصل عليها (لم يعثر عليهم) لن يتأتى له الحصول على موضوع القيمة (الأرض) الذي يمثل مدار البرنامج الأساسي .

ولئن ضاع الموضوع الصيغي الأول (عمار) في الماضي (استشهد) فان المواضيع الصيغية الثلاثة الأخرى (الطاهر ـ عيسى ـ عبد القادر) قد ضاعت في الحاضر (ضابط ـ نقابي ـ أستاذ) . أما الموضوع الصيغي الخامس (الرزقي) قد ضاع في المستقبل (لم يجده الشيخ ويمكن ان يكون اي شيء) .

ـ 3 ـ الايعـاز

لئن كان الانجاز والكفاءة ينتميان الى البعد العملي الذي يختص به البرنامج السردي فثمة بعد آخر هو البعد المعرفي وفيه تندرج عمليتا الايعاز والحكم .

والايعاز يفترض علاقة بين الذات الفاعلة التي تحدث الانجاز وبين المرسل الذي تكون مهمته الأساسيـة اقناع الذات الفاعلة بتحقيق الاتصال او الانفصال . هكذا نعتبر الشيخ موعزا في البرنامج السردي الجزئي الثاني الذي بقي في مجال الاحتمال ولم يقع تطبيقه ، ونعني به « الاقناع » . أما في مستوى البرنامج السردي المطبق فان الشيخ كان في كل المراحل موعزا في برنامج لم يتحقق هو « الزلزال » . إذ كان كثيرا ما يتجه الى « سيدي راشد » طالبا منه ان يحرك قسنطينة باهلها .

والى جانب هذا ـ وبقطع النظر عن البرامج الدنيا ـ فاننا يمكن ان نستنتج من مسار الرواية ان ما يحرك الشيخ يُرَدُّ الى مرسلين = الدين وهو الذي يحرضه على افشال برنامج الحكومة الضديد « الالحادي »[17] ، وحب الثروة وهو يدفعه الى التخطيط لكسب الأنصار لبرنامجه . أما موعز الذات الضديدة (الحكومة) فهو الأشتراكية والمساواة .

على أنه من المهم أن نشير هنا إلى أن الموعز يظهر أحيانا ويختفي أحيانا أخرى . بل انه كثيرا ما لا يعلن عنه . ولكنه يفهم من السياق بالاعتماد على قرائن نصية .

ـ 4 ـ الحكـم

يمثل الحكم وجها آخر من وجوه البعد المعرفي . وهو يعني التأويل بطريق الاستحسان او الاستهجان . ولذلك كان محله المنطقي نهاية البرنامج السردي . كما كان محل الايعاز المنطقيّ بداية البرنامج . ومن المهم ان ننبه الى أن الحكم في هذا المقام لا يُنظَر اليه الا من داخل النص . فلكل نص حقيقته التي ينشئها ويرتبها ترتيبا تسعى السيميائية الى كشف النقاب عنه .

فإذا انطلقنا من « الزلزال » بدا لنا انها تنتهي بجملة من الاحكام متداخلة بسبب جنون الشيخ بو الأرواح . وهي في مجملها نقض لذات الحالة وللذات الفاعلة ولموضوع القيمة وللمواضيع الصيغة التي تمثل قوام البرنامج السردي الأساسي . الا أن نص الرواية مُرصَّع بالاحكام التي ترد في نهاية البرامج السردية الدنيا . ومنشأ ذلك وحدة الذات (الشيخ) وتعدد المواضيع (المنظورات والمسموعات) ، وغلبة ملفوظات الحالة على ملفوظات الفعل . وقد كانت هذه الأحكام في مجملها قائمة على مرجعين لاحظنا وجودهما في كل المراحل وهما الدين والمال . كذلك رأينا الشيخ يقف مما يرى وممن يرى موقف الرافض المنكر ، وهو امر سيتضح في المستوى العميق . وبالمقابل فان الذات الضديدة (الحكومة) لا تبدي حكما في هذا البرنامج لأن المُبَئِّر الرئيسي في الرواية انما هو الشيخ بو الأرواح .

وهكذا يتضح لنا من خلال تحليل المركبة السردية ان رواية « الزلزال » توفر بنية لا تخلو من طرافة . ويبدو ذلك خاصة في :

ـ التركيز على امتلاك الكفاءة لا على موضوع القيمة (الأرض) .
ـ غلبة ملفوظات الحالة على ملفوظات الفعل
ـ وجود شخصيات تعتبر موضوعات (الأقارب) وموضوعات تعتبر ادوارا (المال = موضوع قيمة ومرسل) .
ـ قيام بعض الذوات والموضوعات بأكثر من دور (فالشيخ ذات حالة وذات فاعلة ، والمال كفاءة وايعاز) .

(2) المركبة الخطابية

ـ 1 ـ الأدوار الغرضية

لقد كشف لنا تحليل المركبة السردية عن الكثير من الأدوار العاملية[18] (roles actanciels) سواء في البرنامج السردي الأساسي او في البرنامج الضديد . ولسنا ندعي الالمام بكل ما في « الزلزال » من أدوار إذ أن عملا من هذا القبيل يقتضينا ان نحلل المركبة السردية تحليلا مفصلا ، ونستخرج البرامج الدنيا التي تتعاقب وتتشابك خاذية البرنامج السردي الأساسي . ولكن هذه الأدوار العاملية لا يحددها الا موقعها في البرنامج . ومن ثمة امكن لشخص واحد ان يقوم بأدوار مختلفة (الشيخ : ذات حالة وذات فاعلة ومرسل) كما امكن لأشخاص كثيرين ان يقوموا بدور واحد (أقارب الشيخ الخمسة موضوع صيغي) .

أما في المستوى الخطابي فان المجالات التصويرية[19] تقدم لنا جانبا آخر من جوانب الشخصية نسميه الدور الغرضي (fole ، thématique) وهو مجتمع صور النص وتلخيص للمجال التصويري . وتمت الأدوار الغرضية الى مستوى السطح شأنها شأن الأدوار العاملية ، وان كانت على صلة بالمستوى العميق . ذلك أنها « ترجمة ما للمستوى العميق من محتوى دلالي الى ما يقابله في السلوك الاجتماعي المقولب »[20] .

ومن المؤكد ان رواية « الزلزال » تعتمد اعتمادا كبيرا على الأدوار الغرضية التي تكسبها بعدا رمزيا وثائقيا واقعيا أكده المؤلف حين أشار في كلمته الافتتاحية الى انه يقصد بتاليفه هذا الكتاب ان يعرّف القارىء العربي بجزائر الاستقلال = « هذه الرواية « الزلزال » من الجزائر . واذا كان القارىء العربي عرف الكثير عن الجزائر في العهد الاستعماري والجزائر أثناء الكفاح التحريري [...] فهل يعرف شيئا عن جزائر الاستقلال ؟ »[21] . وهذه الرغبة في جعل الرواية مرآة تعكس الواقع الاجتماعي المعيش حدت بـ « الطاهر وطار » إلى تقديم شخصيات نموذجية .

ولعل الشيخ بو الأرواح يمثل من هذه الناحية أكبر تجمع للأدوار الغرضية . وتعدد الوجوه هذا اقتضته منزلته في الرواية اذ هو البطل . وبامكاننا أن نشير الى بعض هذه الأدوار الغرضية منبهين الى أننا لم نحاول استقراءها جميعا ولم نلتزم بترتيبها حسب ورودها في الرواية ولا حسب أهميتها .

الشيخ الغني : منذ السطور الأولى نرى الشيخ بو الأرواح نازلا من سيارته[22] . ثم نعلم أنه ينتمي الى سلك التعليم وأنه مدير[23] . ثم يعلمنا أنه من مالكي الأرض الكبار إذ تزيد مساحة أرضه على ثلاثة آلاف هكتار[24] . . وهذا البعد الأول أساسي في البرنامج السردي إذ هو شرط لا بد منه لانطلاق برنامج الانفصال (فقدان الأرض) .

الشيخ المتدين : إذ يصف قسنطينة بانها « مثل الكعبة يستحب الدخول اليها يوم الجمعة »[25] . وهو حين يرتفع الأذان ينشط قلبه[26] . ويتضح لنا هذا الدور الغرضي عند قوله « قرانا العلم الشريف وجالسنا العلماء [...] وتفقهنا في المذاهب الأربعة »[27] . وهو لا يقتصر على العلم والايمان ولكنه يؤدي الصلوات[28] . وهذا الدور هو الذي سيستخدمه الشيخ في أكثر الحالات عندما يريد ان يحكم على الآخرين وخاصة على الذات الضديدة (الحكومة) التي تريد فصله عن أرضه .

الشيخ المثقف : فهو يشير الى ابن خلدون مرات كثيرة[29] والى نجيب محفوظ[30] والى التاريخ العربي القديم[31] ويقدم نفسه الى صاحب المقهى بأنه « عالم في الدين والنحو والصرف »[32] . ولهذا الدور اثر بالغ في تعزيز جانب الحكم الذي نشأ من العلاقة التقابلية بين الشيخ وبين كثير من الذوات التي تعترض سبيله وخاصة منها الذوات الجماعية .

الشيخ البخيل : فهو يرفض التصدق على المتسولة أمام الجامع الكبير « اسحبي يدك يا امرأة . لا حول ولا قوة الا بالله . المصيبة . المصائب . من أين خرجوا ؟ »[33] ويجيب بنية متسولة « الله ينوب »[34] . وبعد أن تناول الفطور في مطعم صديقه القديم بلباي يتردد في دفع الثمن[35] . وهو يطرد صهره لأنه استقرضه عشرة آلاف فرنك[36] . ويمتنع عن اعطاء العجوز مقابل زيارته لضريح سيدي راشد[37] . ويرتبط هذا الدور الغرضي مع الدور الغرضي الأول(الغني) بعلاقة تقابلية ، الا أنهما يغدوان متآزرين اذا ما نظرنا اليهما في اطار البرنامج السردي اذ يكون البخيل حريصا على المال نشيطا في الدفاع عن ثروته .

الشيخ المحتال : ويتجلى ذلك خاصة في الوسائل التي استخدمها للحصول على أرض أقاربه . فقد أجبر عبد القادر ابن عمه على رهن أرضه مقابل قرض ثم استحوذ عليها[38] . وسجل أرض عيسى الزاهد ابن خالته باسمه دون علمه[39] . وافتك من الخماس زوجته وابنته وبعث به عنوة الى فرنسا[40] . وهذا الدور اذ ينقض الأدوار الثلاثة الأولى يبرر افشال البرنامج الأساسي وانتصار البرنامج الضديد .

ويمكن أن نتحدث كذلك عن الشيخ المجرم (الذي قتل نساء كثيرات) وعن الشيخ الأناني (الذي يريد القضاء على الجميع ما عدا الموسرين أمثاله) وعن الشيخ العاقر (الذي كان الأبناء هاجسه ولم يكتب له ان يرزق منهم بأحد) . . .

وبامكاننا ان نشير كذلك الى دور الوطني الذي تشترك فيه شخصيات كثيرة فهو ينسب مرة الى الشيخ ومرة الى ابن باديس ومرة الى عمار الذي مات شهيدا ومرة الى الطاهر الذي ينظر اليه من زاويتين فهو وطني مناضل بالنسبة الى اغلب الناس نشال انتهازي بالنسبة الى الشيخ . ودور الانتهازي هذا يندرج فيه الشيخ وايدير المرابي وصاحب المقهى .

كما نجد دور الخانع القانع النادم ويضطلع به بلباي صاحب المطعم ونينو رجل الأعمال الذي كان قوله نافذا في المحاكم . ويشكل ندمهما تحولا عن دور الخيانة الذي اضطلع به كل منهما . فكانت خيانة مقنّعة عند بلباي صريحة عند نينو . ويشاركهما في الخيانة أبو الشيخ بو الأرواح وجده وأبو جده وقد تعاونوا مع الاستعمار الفرنسي .

وإلى جانب كل هذا نجد ادوارا غرضية تقوم بها شخصيات جماعية فالشبان عادة ما يوصفون بالعزم والثقة بالنفس ، والحكومة وأعوانها بالكفر والالحاد ، وأهل قسنطينة بالسرقة والوسخ . وهنا لا بد من الاشارة الى ان هذه الأوصاف انما ترد عبر بو الأرواح . ولذلك فانها لا تقوم بموازاة ادوار عاملية . ذلك ان الذوات الفاعلة في البرنامج الضديد غائبة في مستوى الفعل حاضرة في مستوى الحكم . وحين يمسك الأطفال في آخر الرواية بعنان الحركة ويحاصرون الشيخ ويعاضدهم الشرطة فيأخذونه الى المستشفى يكون المُخْبِرُ (الشيخُ) قد تداخلت في ذهنه الأشياء وأصيب بالجنون .

وهذه المزاوجة بين أدوار غرضية ظاهرة في التصرفات وأدوار غرضية أخرى موجودة في ذهن الشيخ تدعونا الى البحث في قضية أساسية من قضايا علم القص وهي أعوان السرد .

ـ 2 ـ أعوان السرد

عالج الدارسون[41] هذه القضية باسماء شتى فهي تار الصوت وتارة وجهة النظر وتارة الرؤية . ولقد أعادت « ميك بال » النظر في كثير من الدراسات في الموضوع[42] وأفـ ت الى استخراج مستويات ثلاثة في النص القصصي هي

النص السردي والقصة والحكاية . وقد بينت ان كل مستوى من هذه المستويات له عون خصوص يضطلع به . فعون النص السردي هو المؤلف وعون القصة هو الراوي وعون الحكاية هو المبئّر . فالمؤلف هو الذي يكتب ، والراوي هو الذي يقص ، والمبئر هو الذي يرى و « ينتقي الأعمال ويقدمها من الزاوية التي يشاء »[42] .

ويهتم علم القص أساسا بالراوي والمبئر لأنهما - على خلاف المؤلف - يشكلان ملامح النص القصصي ويتظافران على نسج السردية . وفي رواية « الزلزال » ما يبرر الاعتناء بهذه المسألة .

- **مستويات الرواية** : ان ما تختص به « الزلزال » هو وجود مستويين في الرواية . فهي تنفتح بمونولوج يعقبه تعليق ينقله راو بضمير الغائب خارج عن الأحداث لا يعلن عن نفسه . الا أن هذا الراوي الغائب يقطع حديثه - في مرحلة اولى - بمونولوجات الشيخ بو الأرواح التي تسبقها علامة شكلية (مطة الحوار) تشي بتغير المستوى . الا أن هذه العلامة سريعا ما تختفي - في مرحلة ثانية - اذ يقدم حديث الشيخ دون تمهيد او إشارة .

هكذا نجد في « الزلزال » راويين احدهما غائب خفي والآخر حاضر فاعل . ولئن كانا يتناوبان على الرواية في الكتاب كله فان الغلبة من حيث الكم للثاني الذي يتحدث بضمير المتكلم المفرد . وتتلاشى هذه المراوحة بين عوني الرواية في بعض الأحيان حتى ينعدم الفصل بينهما . مثلما نجد في هذا المقطع « تركهما يواصلان الحديث ومر متثاقلا . الشمس حارة . اللون الداكن بدا يعاودني . »[44] .

- **مستويات التبئير** : ان الراوي ليس بالضرورة المبئر . اذ يمكن للراوي ان يتحدث من وجهة نظر احدى الشخصيات رغم انه باعتباره عونا خارج عن أحداث القصة . والتبئير على درجة كبيرة من الأهمية لأنه عامل أساسي في تحديد موقف القارئ من الشخصيات والأحداث . ذلك ان المبئر الخفي الذي يَرى ولا يُرى يعرّي الشخصية الرئيسية ويحاكمها ويهتك سترها . أما المبئر الظاهر الذي يضطلع بدور يكون عادة مطابقا للشخصية الرئيسية فانه يحمي تلك الشخصية اذ لا يطلعنا الا على وجهة نظرها . وفي « الزلزال » كثيرا ما نرى الأشياء بعيني الشيخ بو الأرواح حتى حين يكون الراوي غائبا . ومثال ذلك هذا المقطع « قابلته لافتة الى جانب أخرى عليها = ممنوع ايقاف السيارات وعلى كامل الجدار كتبت العبارة بالفرنسية . . . يبدو أنها من ذاكم الزمن »[45] . فالجملة الأخيرة صادرة عن الشيخ (المبئر) وإن لم تنسب اليه وإنما جاءت على لسان متحدث غائب (الراوي) . الا أن ذلك لا يجعل الشيخ على حق في نظر القارئ . وههنا تكمن براعة وطار الذي توصل لاحداث اثر معاكس لوجهة نظر الشيخ بطرق منها :

- تناقض الفعل مع القول = فهو يدعي التدين ولكنه يستولي على أراضي أقاربه ، ويهر المسكين ، ويعتدي على حرمة الخماس ، ويضاجع زوجة أبيه ثم يخنقها ، كما يخنق بعض زوجاته .

- الحكم سلبا على بعض المصالح العامة كالمصحة البلدية والمدرسة ، والوقوف ضد الاشتراكية والمساواة اللتين يجعلهما مناقضتين لارادة الله .

- تعدد أعوان التبئير ويظهر ذلك في الأصوات التي كانت تصل سمعه من حين لآخر ، وهي تساير أحيانا موقفه ولكنها في الأغلب تدينه وتنبيء بتحمس للبرنامج الضديد . وهذه الأصوات في ظاهرها مشتتة نكرة ، وفي باطنها متوحدة معروفة . إذ هي حين تجتمع وتتكاثف تكوّن الشعب وهو الذات الفاعلة في البرنامج الضديد .

وبهذا نكون قد فتحنا المجال لاستخراج المحاور الكبرى التي تقوم عليها رواية « الزلزال » . فلئن وجدنا لازدواج اعوان الرواية تفسيرا فنيا لتنسى متابعة الشيخ في تنقلاته فان تعدد اعوان التبئير لا يمكن ان يؤوّل الا في اطار أشمل تلوّنه الايديولوجيا ، ويتجلى في المستوى العميق .

— II — المستوى العميق

لقد كشف لنا تحليل مستوى السطح عما ينظم وحدات هذا النص ليؤلف منها المركبة السردية التي تستغل معطيات المركبة الخطابية لتنشيء نصا أدبيا قصصيا له « نحوه » المتميز . الا أن هذا العمل يظل منقوصا ما لم نُحطْ علما بالمنطق الداخلي الذي يحكم هذه العلاقات ، وذلك باستخراج السُّنن التي تتجمع حول كل منها معانم متآلفة تخترق النص وتزرع فيه محاور التواتر[46] التي تجعله ميسور القراءة .

ولا بد لنا ـ قبل التصدي لهذا العمل ـ من ابداء ملاحظتين تتعلق اولاهما بمنهج العمل . فمحاور التواتر في الأصل تتويج لعملية استقرائية تشريحية تنطلق من مسام النص (المعانم) الى الصور المعجمية (figures lexèmatiques) الى الهيئات الخطابية (configurations discursives) الى محاور التواتر ولن يكون بمقدورنا المرور بكل هذه المراحل في هذا المقام وان كان الوصول الى محاور التواتر لا يتاتى الا إذا مررنا في الممارسة بهذه العمليات كلها . أما الملاحظة الثانية فتتعلق بمدى التحليل . ذلك اننا لن نتعرض الى كل محاور التواتر فالأمر يخرج بنا عن الحيز الذي حددناه لعملنا . وسنكتفي بابراز بعضها حتى تكون تجسيدا عمليا وانموذجا تطبيقيا لنظريات علم القص في المستوى العميق .

(1) محاور التواتر

يميز عادة بين محور التواتر العلامي (isotopie sémiologique) الذي يقوم بالربط بين مكونات المجال التصويري (parcours figuratif) الـذي يظهـر في السطح ربطا يحقق له الانسجـام وبين محـور التواتـر الدلالي (isotopie sémantique) الذي من شأنه ان يجمع بين مختلف المجالات التصويرية التي تقوم في النص مبينا تآلفهـا وتناغمهـا وتجانسها . ويعرف محور التواتر بكونه « مجموعة مطردة من المقولات الدلالية تتيح قراءة نص ما قراءة موحدة من قبيل ما ينشأ عن القراءات الجزئية للملفوظات وفض اشكالاتها وغاية ذلك البحث عن قراءة للنص وحيدة »[47] . وسوف نفصل القول في محوري تواتر ـ سننين يجعلان قراءة « الزلزال » ميسورة .

ـ 1 ـ الزمـان

أ) الماضي ـ الحاضر

منذ بداية « الزلزال » يصرح الشيخ بو الأرواح « بدأت الحياة القسنطينية تضيع من ذاكرتي »[48] . وعلى امتداد الرواية نشهد مجابهة في شخص بو الأرواح بين لوحتين = الماضي الثابت ذي القوة المرجعية والحاضر المهتز الذي يبعث على القرف . وعلى ذلك تنقسم المنظورات قسمين = لما « يبدو على عهده »[49] فهو مكتنز بدلالات الايجاب ومصدر طمأنينة وما « لم يعهده »[50] فهو أمر ثقيل على النفس يخشى شره . كذلك كانت قسنطينة تحت الاحتلال الفرنسي موطن « الحب والغرام والحبور والمرح يشع من عيون الغادات الأوروبيات والاسرائيليات . هنا ما كانت تنقطع روائح عطر الياسمين وعطر حلم الذهب وعطر اللبان »[51] . أما الآن فـ « الغبار يتصاعد والبصاق يلمع مع الشمس »[52] . لذلك كان الشيخ في حنين دائم الى ذاك الزمن الذي كان فيه الفرنسيون يحتلون الجزائر « الفرنسيون خرجوا المسلمون خلفوهم . الشقة التي كانت تأوي عائلة أصبحت تأوي عدة عائلات . . أسر الفرنسيين كانت لا تتعدى الثلاثة أو الأربعة أفراد على أقصى تقدير . أما أسر بني عمك فلا أقل من تسعة أو عشرة »[53] . وهذا ما يفسر ايماءه الى ابن خلدون في مواضع كثيرة ملمحا الى عبارته التي يربط فيها بين الأعراب وخراب العمران . ولكنه كثيرا ما يعلق عليه تعليقا عنيفا حين ينطلق من مقولات دينية ليصبح ابن خلدون « صاحب بدعة وزنـديقا ذكيـا »[54] . فلا يـرفض الشيخ الغرب الا إذا أراد موازنته بالاسلام . ومن ثمة فإن الماضي يصبح رمز الروح التي ازهقت في الحاضر = « لم يبق من الحياة السابقة الا الآثار . هدموا عالما وأقاموا آخر . داسوا فوق عنق روح قسنطينة وراحوا يضغطون »[55] .

فمكان « الحمية الوطنية » حلت « دقات الحجر » (الدومينو) والمكتبة غدت « متجرا للأثاث القديم »[56] . « لم يبق في قسنطينة علم أو ثقافة »[57] .

في الماضي يشعر الانسان بالاعتزاز والنخوة . ها هو نينو كان رجل اعمال يبيع ويشتري قضايا المحاكم . أما اليوم فان « المسكين يدلل في السباط ببرنس قديم وجبة ملبوسة ومذياع صغير وسلسلة ذهبية رقيقة »[58] . من هذاالتحول ينشأ انكفاء بو الأرواح على السلف الصالح ودحضه لكل جديد .

وتتعلق بثنائية الماضي ـ الحاضر ثنائية أخرى هي السكون ـ التغير . فالماضي مرتبط بالاستقرار والاطمئنان ومقولات السلف الثابتة . أما الحاضر فهو شاهد التغير المقيت . وأكبر ما يدعم سكون الماضي الدين الذي يعرفه الشيخ بقوله : » الدين الاخلاص للسلف . وكل بدعة ضلال »[59] . وعلى هذا النحو يغدو الماضي صورة من « النظام الرباني السرمدي »[60] . فأين ذلك من هذه المظاهر المتحولة التي فقدت جمالها وانسجامها ومنطقها« تأمل مدخل المطعم فلم يصدق عينيه . . المكان هو المكان لكن حاله تغيرت كثيرا . . التفت الى المقهى المواجه الفاه في موضعه لكنه متدهور ايضا بشكل فظيع . واصل التامل . . نزل فرنسا يفغر فاه دون ان يقول شيئا عن حقيقته هل ما زال على عهده = نزل فرنسا أم تحول الى نزل للفئران والبق ؟ »[61] .

هكذا يظل الماضي قائما متوحدا في ذهن الشيخ بو الأرواح الذي يشهد حيثما التفت عالما متزعزعا لا يثبت على حال الى أن يفشل الرجل في العثور على أقاربه فيرتد الى ماضي العرب وماضي عائلته وماضيه . وإذا بهذا الماضي الذي كان عمادا راسخا يتخلخل . وإذا به يشي بالتقلب والنفاق والخديعة والخيانة = « بايعنا أبا بكر في السقيفة ثم رحنا نهمس في آذان علي والانصار . بايعنا عمر وقتلنا عمر . نصبنا عثمان وقتلنا عثمان . بايعنا عليا مليون مرة وقتلناه مليون مرة . نمدح معاوية ونذمه . نقيم المذاهب ونحطمها . نتطلق من السنة وننتهي الى البدعة »[62] . وبعد أن يحدثنا عن زوجاته وجرائمه نجده في آخر فصول الرواية يعود الى ماضيه ليعيد قتل من قتل من نسائه وليقتل من لم يقتل منهن ويلقي بهن من على الجسر فيتلاشين هباء ويساقط الماضي بدادا كنداف القطن تذروه رياح الحاضر المتسلط .

ب) النظام والفوضى

وعلى هذا النحو تبدو المعادلة الأساسية في الرواية بين ذات متجانسة تؤمن بالنظام الرباني السرمدي وواقع مشوش « انطلق بصره مع الجسر واستعاد شيئا من الاطمئنان رغم تداخل السيارات والراجلين نساء ورجالا في حركة فوضوية »[63] . ان هذا التداخل الشامل يتجلى في الأصعدة كلها . وها ان « الزمن ينقلب رأسا على عقب »[64] في نظر الشيخ ، ذلك ان التغير الذي لا يحكمه منطق قد غدا هو القاعدة « يا بوي باردو هذا لا يستقر على حال . تارة يحمله الطوفان . تارة يجرفه الانزلاق . تارة تقضي عليه الحكومة . تارة تاتي عليه النار »[65] .

وهذه الفوضى تبلغ حدها اذ تجمع بين الصفاقة والورع ، وبين الوضاعة والثروة في مكان واحد « مقهى مرتبة بنجمتين او ثلاث او قاعة شاي يجلس فيها شاب وشابة يتغازلان ، وشيخ يقرأ في مصحف ، وآخر يذكر الله بسبحته ، الى جانب بائع بيض او أي شيء من هذا القبيل ، الى جانب صاحب الملايين ، إلى جانب الفقير المعدم »[66] .

وتظل هذه المعادلة قائمة في الجزء الأكبر من الرواية الا انها تتفجر في النهاية حين يحاول الشيخ الوصول الى رحبة الصوف حيث يتوقع ان يجد قريبه الرزقي البرادعي فلا يوفق « آه أين أنا ؟ »[67]« لقد تهت »[68]« واختلطت الأمور عند الشيخ عبد المجيد بو الأرواح »[69] . وإذا بهذا الاختلاط يصبح لوثة من جنون . ويتم انقلاب الأدوار حين تتحول الفوضى الخارجية نظاما فاذا بالأطفال يحكمون الطوق حول الشيخ واذا بالشرطة (رمز النظام) تأخذه الى المستشفى .

ج) الزلزال

ومنه استمدت الرواية عنوانها . وهو يمثل لازمة لم يخل منها فصل عدة مرات . وإذا رمنا تفصيل الزلزال الى معالمه الأساسية في النص بدا لنا : تحولا + مفاجئا + هداما + عاما + من فعل قوة غيبية + يسلط على الجميع دون ارادتهم + عقابا للفاسقين الفاجرين .

ولقد انطلق الحديث عن الزلزال منذ الفصل الأول حين كان شيخ حضري يشكو اكتظاظ المدينة ويسأل سيدي راشد ان يحركها باهلها . ثم إذا بامام الجامع « بدل ان يركز [. .] خطبة الجمعة على التقوى استغرق في شرح الزلزال وعظمته »[70] . وحين يقابل بو الأرواح بلباي يجده مؤمنا بأن « قسنطينة زلزلت وانتهى الأمر »[71] وبأن « الزلزال الحقيقي احساس »[72] .

ان الزلزال رمز النهاية . ولقد ظل في الرواية كلها مدار برنامج محتمل مرسله الشيخ بو الأرواح والمرسل اليه فيه سيدي راشد الذي يضطلع بدور الذات الفاعلة . أما الانجاز فهو الفصل بين المدينة ومظاهر السلب في السياسة والمجتمع والأخلاق . ويتوقف هذا البرنامج اللازمة على صيغة طلبية تنطلق من ارادة الفعل ، وتتضح في موقف بو الأرواح الذي لا يملك الا أن يطلب من الولي الصالح ان يعجل بقلب المدينة رأسا على عقب .

ويكشف لنا استقراء الحالات التي ورد فيها حديث الزلزال انه عامل توازن يقحمه الشيخ بو الأرواح وهو الذات الفاعلة في البرنامج الأول حين يشعر بتغلب البرنامج الضديد . وعادة ما يكون ذلك رد فعل على التغير السلبي . « جميل جدا ان تتحرك هذه الصخرة »[73] . . ان ارتجاج الماضي وزوال معالمه بفقدان الشيخ العمادَ الذي يرتكز عليه . ولما كان عاجزا عن ازاحة مظاهر القبح والشر من حوله فانه يستنجد بولي الله حتى ينتقم له من الرعاع الفجرة .

وعلى هذا النحو يغدو الزلزال منطويا على دورين عرضيين = فهو موضوع تسعى الذات (بو الأرواح) الى اقامة علاقة اتصال به وهو مساعد لأنه يبدو سلاحا يقارع به الشيخ تحول الأشياء . انه التحولُ المضاد للتحول ، والتدهورُ المناقض للتدهور . ويمكن ان نميز في الزلزال بين مستويين :

- مستوى مادي وهو يرتبط بالظواهر الملموسة . ويساعد على تحقيقه وضع قسنطينة الجيولوجي (الاخدود) وميلان مبانيها الى الهوة = « تهوي البنايات الى القعر مثقلة . تنفجر قوارير الغاز وتعلو ألسنة النار »[74] .
- مستوى معنوي عبّر عنه بلباي بقوله = « الزلزال الحقيقي احساس »[75] وتبناه الشيخ بو الأرواح بعد ذلك .
- ولئن ظل المستوى الأول في حيز الاحتمال والتمني فان المستوى الثاني قد تم فعلا في مرحلتين =
- المرحلة الأولى = تغير المدينة (سكانا واخلاقا . .) .
- المرحلة الثانية = تغير الشيخ بو الأرواح وقد حدث ذلك في آخر الرواية حين زلزل من الداخل وقرر الانقطاع عن تحقيق الغاية التي جاء من أجلها الى المدينة وهي انقاذ أرضه . ثم فقد عقله ، وتداخل في ذهنه الماضي والحاضر ، والواقع والخيال ، وكاد يلقي بنفسه من على الجسر الى الأخدود الذي كان يتمنى ان تنهار فيه بنايات المدينة . فاضحى الزلزال المادي وسيلة لتفادي الزلزال النفسي « هل انني مع الزلزال أو ضده ؟ أنا مع القضاء على الاحساس المتواصل بالزلزال . لا يفعل ذلك غير الزلزال الحقيقي . غير ان يلبي سيدي راشد دعوتي ويتقبل وعدتي »[76] . وهكذا تتكشف الذات الفاعلة عن ذات أخرى تتداوى من الزلزال بالزلزال .

ـ 2 ـ المكـان

أ) الارتفاع والانخفاض

في لوحة واحدة في الفصل الأول يقف « تمثال القديسة جان دارك بجناحيه » متأهبا للطيران بازاء بعض المباني التي تبدو « منحنية وكأنما تود ان تطل على أعماق هذا الأخدود العظيم »[77] . وعلى مدى الرواية نلحظ المفارقة بين الغور و

« الصخرة الملساء المنحدرة مع جانبي الأخدود »[39] . وكلما حام هاجس الزلزال في ذهن الشيخ بو الأرواح تراءت له البنايات تهوي من علوها الى القرار السحيق « هذه الجدران مائلة . السقوف تطل على الأرض . نصف مليون فوق صخرة »[39] . وليست هذه المدينة الآهلة المكتظة سوى عالم سفلي « من هذا العالم السفلي [. .] يكون خراب المدينة »[40] . وحين يردد الشيخ بصره بين القمم والمهاوي يرى الفارق كبيرا « النظر الى العالم السفلي من مثل هذا العلو يخلق الدوار في رأس الانسان »[41] .

ومن هذا التقسيم القاطع تنفصم العرى بين العالمين ، ولا يكون التشابه الا بين العوالم التحتية وحدها « هذا هو شأن العوالم السفلى . تتردى تتردى حتى تذوب ، حتى لا يبقى فيها سوى سفليتها »[42] . وتبقى المقابلة بين الطيران والانحدار بمثابة المقياس الذي ينبئنا عن حالة الشيخ وعن مدى تقدمه في تحقيق برنامجه الأساسي ، من البداية حين تكون الحواجز مضروبة بين العالمين الى ان يتيه بو الأرواح وتختلط عنده الأشياء « أقذف بنفسي وسط هذا الموج وأتدافع معه حتى أجد مخرجا من هذا التيه . هل انحدر ؟ هل اصعد ؟ هنا التيار يسير في جميع الاتجاهات . يصعد وينزل . هنا قاع النهر قاع المحيط يتعرض لضغط الدفع من جميع الجهات فيصعد وينزل ويتقدم ويتأخر . يحمل معه الطين والرمل والحصى والأعشاب والطحالب والأسماك الميتة ويروح يتلولب ويتلولب في مكان واحد »[43] .

وفي الفصل الأخير يستعيد الشيخ ذكرى نسائه ملقيا بجثثهن الواحدة بعد الأخرى الى القاع « راحت حنيفة تهوي وتهوي متكورة في ثوب نومي شفاف »[44] . وتكون هذه العمليات المتتابعة المتماثلة علامة التفتت الذي يصيب ماضي الشيخ فيذروه الى الأسفل وكأنما القاؤه بنسوته مقدمة لالقائه بنفسه . وقد جاء ذلك تهديدا « حملها . قذف بها . انحدرت نحو قعر الأخدود . تواصل انحدارها أكثر من اللازم . قبل ان تقترب من القعر هتفت = سيعود ابني من فرنسا ، سيقذف بك الى أسفل سافلين »[45] وخيالا مرعبا « خيل اليه انهم انطلقوا دفعة واحدة نحوه ، وانهم سيحملونه ويرمون به الى القعر »[46] . ثم جاء نية وقرارا « سأقذف بنفسي ان اضطررت ولن أدعهم يقذفون هم بي »[47] .

وهكذا يشكل الارتفاع ـ الانخفاض محور تواتر أساسيا في الرواية تتعلق به رموز هي من هذا العمل في صميمه .

ب) الجسور

تنبني الرواية على فصول سبعة يستمد كل منها عنوانه من أحد جسور قسنطينة = باب القنطرة ـ سيدي مسيد ـ سيدي راشد ـ مجاز الغنم ـ جسر المصعد ـ جسر الشياطين ـ جسر الهواء . والجسر رمز الربط بين مستويين . وهو بالمعنى الأفقي تفسير لتنقلات بو الأرواح بين أحياء قسنطينة وما يواكبها من تحقق للبرنامج السردي الأساسي او عدم تحقق له . وبالمعنى العمودي رمز المعراج الذي سيؤدي بالشيخ الى التطهر من أفكاره . وموقعه « المعلق » يجعله مصاحبا لمعاني الخطر والزلزال . فمجاز الغنم يبدو للشيخ « أصدق الجسور على الاطلاق . انه يومىء الى احساس القسنطينيين الدائم بأنه محكوم عليهم بفناء عاجل »[48] .

وهذه الجسور مرتبطة بمحور التواتر = الزمان إذ هي في عهد الاستقلال ما زالت تشهد على تفنن الغرب وقدرته على السيطرة على الطبيعة . فهي تقوم دليلا على شموخ الماضي وتفوق الآخر « الغرب عندما جاء خربها بالكهوف والانفاق وخاطها بالجسور . تفنن بالاسمنت في باب القنطرة وسيدي مسيد وسيدي راشد . ثم كأنما لم يكفه ذلك لاظهار براعته . راح يفتل حبالا من الفولاذ ويبني بالحديد ويعلق في الفضاء »[49] . وتفوق الآخر (الفرنسيين واليهود) واضح في قتلهم والد الشيخ حين حاول ان يتحدى سلطتهم المطلقة « بعد ثلاثة أشهر عثر عليه في قسنطينة ميتا . اثخنوا جسده بالجراح وقذفوا به الى قعر الوادي . رموه من فوق الجسر »[50] . وبداية النهاية هذه هي التي أملت على عبد المجيد بو الأرواح ان ينتحر من على الجسر فيكون موته انفراطا لحبات العقد وايذانا بالسقوط الأخير . لأن الجسر أصبح للأطفال الذين يملكون اعنة المستقبل ويحاصرون الشيخ في معقله الأخير « أيتها البسكرية [. .] ابكيني قبل ان أقذف بنفسي من على الجسر . ابكي كل آل بو الأرواح »[51] . ولا شك أن نهاية الفرد لا تعني نهاية الأسرة الا لأنه

عاقر وقد حاول بشتى الطرق ان ينجب ولدا فلم يوفق « ارادتك يا بو الأرواح لا تنفذ في تمديد روحك . أنت عقيم »[92] . ومن هنا يكون الجسر بؤرة التحول وموقع الحسم بين براعم المستقبل وجذع الشجرة الذي نخره السوس .

ان محوري التواتر الزماني والمكاني في رواية « الزلزال » أكثر شمولا وتفرعا من أن يحيط بهما هذا التحليل . ولكن قراءتنا السريعة أكدت لنا انهما شائعان في مسام الرواية متداخلان حاضران حضورا دائما يجعل منهما سننين تحوم حولهما وحدات النص المعنوية الدنيا ، وتأتلف لتكون المسارب الكبرى التي يجري عبرها المعنى . ولذلك فان هذا النص يمكن ان يقرأ قراءات عدة سنحاول الاشارة الى بعضها في القسم الأخير من عملنا .

(2) مستويات التأويل

ان كون النص متعدد المعاني يجعلنا قادرين على « ربطه بانساق كثيرة من التأويلات المختلفة اذ أن ترتيب المقطع ترتيبا اختباريا و [استخراج] ما بين الأعمال من روابط نسبية ، قد غدا عديم الجدوى بشكل جلي »[93] . ذلك ان « النص بمفرده لا يتيح لنا ان نبرر ماخترناه تأويلا أحادي المعنى »[94] . ولذلك فاننا سنحاول في هذه المرحلة الأخيرة ان نجرب تطبيق مستويات ثلاثة في التأويل تنظر الى النص باعتباره جزءا من نظام خارج عنه . ونحاول تحسس الصلات بينه وبين الانساق التي تحيط به وتولده وتؤثر فيه ولكنه بالمقابل يسعى الى تغييرها ويخرج من المفعولية الى الفاعلية .

أ) اقتصاديا

تندرج الرواية ضمن رؤية طبقية واضحة ذات طرفين = اولهما الاسياد (« الآغوات والباشوات والمشائخ وكبار القوم أصحاب الأرض والأغنام والجاه »[95] ويلحق بهم التجار) وثانيهما الرعاع (« باعة ثمرة الصبار والحمالين والنشالين ومعيني سائقي الشاحنات وصناع المقاهي الرديئة »[96]) . والشق الأول ـ انصار السلف ـ هم « الشعب الحقيقي [. .] وليس العمال والخماسة والرعاة »[97] .

الا ان النمو الذي شهده نفوذ الطبقات السفلية جعل البطل الاقطاعي يحلم بأمة مثالية لا يعكر صفوها الطغام « يا سيدي راشد [. .] اقض على الحكومة وعلى الفقراء والعمال والطلبة والنقابيين . أعد بعث أمة جديدة ليس فيها سوى نحن السادة والاشراف »[98] . ذلك ان هؤلاء السادة حصن الدين والخير . فهم « عباد الله الصالحون »[99] أما الآخرون فهم ممثلو الشر « هؤلاء الاشرار من الفقراء والتعساء »[100] . واختراق الحاجز الطبقي لا يمكن قبوله بحال لأنه مناف للمشيئة الالهية « يجمعون بين ابناء الأغنياء والفقراء في ثانوية او جامعة واحدة . ويعطونهم معلومات واحدة . انهم يناقضون إرادة الله ويقفون عرضة لها »[101] .

وهذا الوضع الطبقي الذي يقف عبد المجيد بو الأرواح ممثلا له ومدافعا عنه ينقلب حين يتصدى الخماس الموتور في عرضه الى الشيخ فياخذ بثاره « الخماس عاد لينتزع منك الأرض ويملأها أطفالا »[102] . وهذا الثار هو نهاية الاقطاع في مجتمع جديد يقوده الفلاحون والعمال .

ان عدم التوازن الأصلي الذي ولد الصراع قد آل في النهاية الى انتصار المقهورين . وهو ما دعا المؤلف الى اهداء كتابه « الى المناضلين العماليين والى كل من بنى ويبني الثورة الزراعية في الجزائر »[103] .

ب) اجتماعيا

تحكم الرواية ثنائية الايمان والالحاد . إذ يمثل الشيخ جانب الدين وتمثل الحكومة الزندقة والكفر وتخريب الدين . ويتضح ذلك في برنامج التأميم . ولقد ظل الدين مرادف الماضي « كل محاولة لفصل الدين عن الماضي [. .] انما

هي محاربة للدين ذاته »[154] . ولذلك فان الإعتقاد في الأولياء وزيارة اضرحتهم جزء لا يتجزأ من الدين . ومن هنا كانت المجابهة عنيفة بين نظرة جامدة قوامها المؤسس ونظرة حركية قوامها التغيير . وقد أدرجت الأخلاق في هذا الصراع فزخر الكتاب بصور فساد الأخلاق (الدعارة ـ الجنس مع المحارم ـ السرقة . .) التي اعتُمِدت لبيان سوء المآل الذي صارت اليه البلاد بسبب الحاد الحكومة . وكما انتصر الفقراء على الأغنياء فان التأميم « الالحادي » انتصر على الاقطاع « الورع » .

على أننا ان نظرنا الى القضية من زاوية أخرى غير تلك التي اعتمدها الشيخ بو الأرواح بدا لنا ان « الحاد » الحكومة يتناقض وبعض الاشارات الى بنائها الجوامع . فتنزاح المقابلة بين الدين والالحاد الى مقابلة بين دين فولكلوري ودين مخلّص من الشوائب . وهكذا يتضح ان الدين والاخلاق والمعتقدات قد جُنِّدت في المعركة ولم تعتبر لذاتها وانما اتخذت منطلقات لتبرير رؤية الشيخ الطبقية التي اندحرت عند احتدام الصراع الاجتماعي وبلوغه اوجه . فكان الزلزال هو القوة الهوجاء التي اكتسحت المجتمع القديم وحاصرته والقت به الى الاندثار .

ج) سياسيا

يدور الصراع في الرواية كلها بين تصورين = الطاعي يمثله الشيخ واشتراكي تمثله الحكومة . ولقد كان الربط بين الاشتراكية والشيوعية والالحاد دائما في ذهن الشيخ « استغفر الله . استغفر الله . الاستقلال استقلال والانتصار انتصار والاشتراكية والشيوعية شيء آخر . سيقيض الله لدينه من يستعيد عزته وقوته في النفوس »[155] . فالاشتراكية لا تستمد جذورها من التراث العربي الاسلامي بل هي « فكرة مستوردة »[156] . فالحكومة « يخطط لها الروس »[157] . وهذه الاشتراكية التي ظاهرها المساواة بين الطبقات ليست في الواقع الا سرقة وتبذيرا « يسرقون من الأغنياء ويبذّرون على الحفاة العراة الرعاة »[158] . ان هذه الاشتراكية تنقض العدالة[159] الالهية .

على ان الاشتراكية تظهر في انجازاتها (المدارس والمستشفيات والمصانع) في حين تصدر عن ممثل الاقطاع أعمال تدينه (الخيانة الوطنية والتعسف الطبقي على الخماس والجرائم) .

وهكذا فان الصراع لا يحسم في النهاية بالعنف الطبقي وانما يصل الاقطاع الى مرحلة التفسخ بشكل طبيعي . فتنهار ركائزه وتشتد عزلته حتى يحاول الانتحار . وهنا يقوم النظام (ممثلا في الشرطة) بانقاذه بدافع الرأفة .

وعلى هذا النحو يمكننا ان نستخلص بعض الملاحظات العامة المتعلقة بمستويات التأويل :

1 ـ ان هذه المستويات لا ينفصل بعضها عن بعض .

2 ـ هذه المستويات الثلاثة تقوم على بنية ثنائية يحكمها الصراع . فالرواية مندرجة في مرحلة تحول حاسم اقتصادي واجتماعي وسياسي .

3 ـ ان العلاقة بين طرفي الصراع تنقلب انقلابا مبينا في نهاية الكتاب . فالشيخ الذي كان في موقف هجوم قد زلزل زلزاله وخارت قواه واربدت الأشياء في عينيه فدخل مرحلة التيه .

4 ـ لا بد من ربط مستويات التأويل بالمحاور . فلا يمكن فهم الثروة والدين والاقطاع ان فصلناها عن الماضي الذي منه تستمد مشروعية وجودها وعن الارتفاع الذي يحدد موقعها القديم في التركيبة الاقتصادية الاجتماعية السياسية . كما ان الفقر والالحاد (بمفهوم الشيخ) والاشتراكية هي علائم الحاضر وقوائمه ـ وهي تتصل بالمعذبين في الأرض لا بعلية القوم .

5 ـ ان الرواية في جوهرها قائمة على التحول في مستويات عدة . ولئن كان الزلزال ـ بمعنييه المادي والمعنوي ـ يرسم الحدث فان الجسر يرسم مكان التحول . وهو يتوج الصراع ليحاصر عليه الشيخ ويشرف على الانتحار في حين يحتل الصبية مدخليه ويمتلكون أمره .

*

لقد حاولنا في هذا العمل ـ الذي نعترف بأنه منقوص من عدة وجوه ـ ان نضع على المحك جملة من النظريات المتصلة بعلم القص وان نطبقها على رواية « الزلزال » . وقد عمدنا في الكثير من المناسبات الى اقتراح مصطلحات لا نعرف لها مقابلا في العربية . ولما كان القسم الأكبر من هذه المصطلحات منطويا على جملة من المعارف والمقولات فقد حرصنا على اثبات مقابلاتها الفرنسية وتفسير مدلول اللفظ المستعمل كلما وجدنا الى ذلك سبيلا .

وقد بينا في المرحلة الأولى البنية الشكلية التي تقوم عليها الرواية فاستخرجنا البرنامج السردي الأساسي والبرنامج الضديد ، وعرفنا ببعض البرامج السردية الجزئية ، محاولين ان نبيّن ما يربط بينها من صلات ناظرين اليها من عدة زوايا كشفت لنا عن الأدوار العاملية البارزة . وقد قادتنا هذه الأدوار الى الأدوار الغرضية التي ركزنا الحديث فيها على الشيخ بو الأرواح لتجمع عدة أدوار غرضية في شخصه . واشرنا كذلك الى اشتراك شخصيات أخرى مختلفة في دور غرضي واحد . وقد مهد لنا ذلك الاحاطة باعوان السرد فبينا خصوصية الرواية التي تتجلى في تعدد مستويات السرد ومستويات التبئير . وكان ذلك منطلقا للانتقال الى المرحلة الثانية التي عرضنا فيها الى البنية العميقة . واقتصرنا في بحثنا في محاور التواتر على محوري الزمان والمكان اللذين تنتظم حولها دلالات الرواية . وقد عقدنا في النهاية قسما لمستويات التأويل حاولنا فيه النظر في الرؤى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تعكسها الرواية ، وهي وثيقة الاتصال بالمنظومات الخارجة عنها والمرتبطة بها ارتباطا جدليا .

ولئن حرصنا على تبرير محاور التواتر ومستويات التأويل وابراز ما يصل بينها من معان فاننا ابعد ما نكون عن الرضى بما وصلنا اليه . ولسنا نزعم اننا استوفينا القول وانما غاية مطمحنا ان نكون قد ابلغنا .

الا أننا ـ مع كل ذلك ـ لم نرد ان نكون مجرد ناقلين لما سطره البعض من مناهج تحليل . ولئن كانت استعانتنا بـ « غريماس » كبيرة فاننا اعتمدنا كذلك « بال » و « شميدت » وهما يصدران عن رؤية مختلفة عن رؤيته . فادرجنا بعض نظرياتهما في مستوى السطح والمستوى العميق . وحاولنا ان يكون ذلك في اطار كل متآلف الأجزاء لا تصدّع فيه ولا نشاز .

ونريد في الختام ان نشير الى أن النص الحقيقي هو الذي يتيح للدارس ان يتخطى مستوى الدلالة الى « التدلال » (signifiance)(15) . ومن ثمة فان ما قمنا به لا يعدو ان يكون قراءة مظروفة لا تفيد الا عن حيزها الزماني والمكاني وما يحوم به من معطيات نفسانية واقتصادية واجتماعية . . فهي بهذا المعنى قراءة وحيدة محدودة لنص متعدد غير محدود .

(1) Mieke Bal : Narratologie. Editions klincksieck. Paris. 1977. p 13.
(2) J. Courtés : Introduction à la sémiotique narrative et discursive. Hachette Université. Paris. 1976. p. 37.
(3) R. Barthes : Introduction à l'analyse structurale des récits. Communications. 8. 1966. pp. 3-4.
(4) Cl. Chabrol : Sémiotique narrative et textuelle. Larousse. 1973. p. 8.
(5) Siegfried J. Schmidt : Théorie et pratique d'une étude scientifique de la narrativité littéraire. in C. Chabrol : Sémiotique... p. 152.
(6) Mieke B[illegible] : Narratologie. p. 1.
(7) Idem. p. [illegible].
(8) Idem. p. 5.
(9) Vladimir Propp : Morphologie du conte. Editions du Seuil. Collection Points. Paris. 1970.
(10) J. Courtès : Introduction. p. 9.

(11) الطاهر وطار = الزلزال . ط 3 . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . د . ت . 224 ص .
(12) اعتمدنا في هذه المرحلة على كتاب Groupe d'entrevernes : Analyse sémiotique des textes. Presses universitaires de Lyon. 1979. الذي استفدنا منه كثيرا من التعريفات .
(13) الزلزال ص 25 .
(14) م . ن . ص 105 .

(15) م . ن . ص 32 .

(16) يميز في المواضيع بين ضربين = مواضيع القيمة (objet valeur) التي تتعلق بالانجاز وهي المواضيع الأساسية التي يقوم عليها التحول . والمواضيع الصيغية (objet modal) التي ترتبط بالكفاءة . وبتوفرها تستطيع الذات المتحولة ان تملك الكفاءة التي تؤهلها لانجاز التحول الرئيسي .

(17) الزلزال . ص . 31 .

(18) وهي الذات الممكنة (الارادة) والذات الكفأة (الاستطاعة والعلم) والذات المنجزة والذات المعترف بها . Analyse sémiotique des textes . p . 169

(19) المجالات التصويرية (parcours figuratifs) هي ما ينتج عن تجمع جملة من صور الخطاب وظهورها فيه باعتبارها شبكة من الصور المأصلية lexèmatique المترابطة فيما بينها . Analyse sémiotique des textes . p . 94 .

(20) انظر J. Courtés : Introduction . p 128

(21) الزلزال . ص . 5 .

(22) م . ن . ص . 9 .

(23) م . ن . ص . 26 .

(24) م . ن . ص . 32 .

(25) م . ن . ص . 9 .

(26) م . ن . ص . 11 .

(27) م . ن . ص . 13 .

(28) م . ن . ص . 14 .

(29) م . ن . ص . 12 وما يليها .

(30) م . ن . ص . 45 .

(31) م . ن . ص . 170 .

(32) م . ن . ص . 105 .

(33) م . ن . ص . 18 .

(34) م . ن . ص . 20 .

(35) م . ن . ص . 33 .

(36) م . ن . ص . 58 .

(37) م . ن . ص . 134 .

(38) م . ن . ص . 61 .

(39) م . . ن . ص . 64 .

(40) م . ن . ص . 179 .

(41) نشير على سبيل المثال لا الحصر الى :

Norman Friedman : Point of view Fiction. The development of a critical concept. in P.M.L.A. N° 70. 1955. pp. 1160-1184.
Gérard Genette : Point de vue ou spective narrative. in Poétique. N° 4. 1970. pp. 476-497.
Wolfgang Kayser : Qui raconte le man ? in Poétique. n. 4. 1970. pp. 498-510.
Pierre Vitoux : Le jeu de la focali ation. in Poétique n. 51. 1982. pp. 359-368.

(42) Mieke Bal : Narratologie. P mière partie : Narration et focalisation.

(43) Idem. p. 32.

(44) الزلزال . ص . 152 .

(45) م . ن . ص . 38 .

(46) محور التواتر (isotopie) هو مجموعة مطردة من المقولات الدلالية تجعل قراءة نص ما قراءة متماسكة أمرا ميسورا . (معجم « لكسيس » . Lexis) وهي تعني عند غريماس « الخصوصية المميزة التي تتوفر لوحدة دلالية فتتيح [للقارىء] ان يباشر خطابا ما باعتباره وحدة دالة . (معجم اللسانيات . Dict . de Ling . Larousse . 1973) .

(47) A.J. GREIMAS : Du sens, Editions du Seuil, Paris, 1970.

(48) الزلزال . ص . 10 .

(49) م . ن . ص . 10 .□

(50) م . ن . ص . 16 .

(51) م . ن . ص . 35 .

(52) م . ن . ص . 36 .

(53) م . ن . ص . ص . 27 ـ 28 .

(54) م . ن . ص . 145 .

(55) م . ن . ص . 39 .

(56) م . ن . ص . 42 .

(57) م . ن . ص . 72 .

(58) م . ن . ص . 89 .

(59) م . ن . ص . 18 .

(60) م . ن . ص . 73 .

(61) م . ن . ص . ص . 22 ـ 23 .

(62) م . ن . ص . 170 .

(63) م . ن ص . 10 .

(64) م . ن . ص . 75 .

(65) م . ن . . ص . 155 .

(66) م . ن . ص . 195 .

(67) م . ن . ص . 200 .

(68) م . ن . ص . 201 .

(69) م . ن . ص . 202 .

(70) م . ن . ص . 20 .

(71) م . ن . ص . 28 .

(72) م . ن . ص . 29 .

(73) م . ن . ص . 73 .

(74) م . ن . ص . 51 .

(75) م . ن . ص . 29 .

(76) م . ن . ص . 220 .

(77) م . ن . ص . 11 .

(78) م . ن . ص . 14 .

(79) م . ن ص . 34 .

(80) م . ن . ص . 46 .

(81) م . ن . ص . 46 .

(82) م . ن . ص . 128 .

(83) م . ن . ص . 203 .

(84) م . ن . ص . 214 .

(85) م . ن . ص . 217 .

(86) م . ن . ص . 213 .

(87) م . ن . ص . 214 .

(88) م . ن . ص . 162 .

(89) م . ن . ص . 168 .

(90) م . ن . ص . 177 .

(91) م . ن . ص . 223 .

(92) م . ن . ص . 221 .

(93) S. Schmidt : in cl. Chabiol : Sémiotique narrative et textuelle, p.p. 159-160.

(94) Idem. p. 159.

(95) الزلزال . ص . 23 .

(96) م . . ن . ص . 24 .

(97) م . ن . ص . 26 .

(98) م . ن . ص . 136 .

(99) م . ن . ص . 101 .

(100) م . ن . ص . 161 .

(101) م . ن . ص . 157 .

(102) م . ن . ص . 218 .

(103) م . ن . ص . 7 .

(104) م . ن . ص . 130 .

(105) م . ن . ص . 92 .

(106) م . ن . ص . 12 .

(107) م . ن . ص . 101 .

(108) م . ن . ص . 74 .

(109) م . ن . ص . 51 .

(110) يميز « بارت » بين الدلالة والتدلال بقوله : « ان الدلالة تنتمي الى مستوى المُنتَج والملفوظ والتواصل [أما] العمل الدال فينتمي الى مستوى الانتاج والتلفظ والترميز . هذا العمل بعينه هو الذي نصطلح على تسميته بالتدلال . ان التدلال سيرورة يتأتى فيها لـ « فاعل » النص وقد انعتق من منطق الانا ـ الكوجيتو واقتحم الوانا من المنطق أخرى (منطق الدال ومنطق التناقض) ان يقاوم المعنى ويتحطم (ويغدو هباء منثورا ») .